وبعض أهل المعرفة والشطح يقولون : الله قدَّم الإحسان أولاً ، فيجب على العبد أن يأتى بالإحسان جزاء الإحسان ؛ لأنه ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن]

وحين يُحسن العبد فى التكليف يُحيِّيه ربه بإحسان آخر ، فيرد العبد على إحسان ربه إليه بالإحسان ، وهكذا يتواصل الإحسان بين العبد وربه إلى ما لا نهاية .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾

أولاً : نلحظ فى اللفظ أن مؤمناً وفاسقاً جاءت بصيغة المفرد ، فكان القياس أنْ نقول : لا يستويان ، إنما سياق القرآن ﴿لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] وسبق أنْ قُلْنا : إن (من وما) الموصولتين تأتى للمفرد أو للمثنى أو للجمع ، وللمذكر وللمؤنث ، فمرة يراعى السياق لفظها ، ومرة يراعى معناها .

والمعنى هنا ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا (١٨)﴾ [السجدة] الحق سبحانه لا يتكلم عن المفرد ، إنما عن الجمع ، أو أنها قيلت رداً لحالة مخصوصة بين مؤمن وكافر وأراد الحق سبحانه أن يعطيها

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج الواحدى وابن عساكر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة بن أبى معيط لعلى بن أبى طالب : أنا أحدُّ منك سناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ للكتيبة منك . فقال له على : اسكت فإنما أنت فاسق . فنزلت ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] [أسباب النزول للسيوطى ص ١٣٦] .

العمـوم لا خصـوص السبب ، فـراعى السيـاق خصوص السـبب فى مـؤمن وكافـر ، وراعى عمـوم الموضـوع فقـال ﴿لَّا يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] والقاعدة الـفقهية تقـول : إن العبرة فى القرآن بعـموم اللفظ لا بخصوص السبب[1] .

وقيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقـبة بن أبى معيط حين جادل عليـاً رضى الله عنه . فقال له : أنا أشبُّ منك شـباباً ، وأجلد[2] منك جَلَداً ، وأذرب[3] منك لسـاناً ، وأحـدُّ منك سـناناً ، وأشـجع منك وجداناً ، وأكـثر منك مَـرَقاً . فـردَّ عليه عليٌّ ـ كـرَّم الله وجهـه ـ بما يدحض هذا كله ويبـطله ، فقـال له : اسكت يـا فاسق ، ولا مـوهبة لفاسق .

والمعنى : إنْ كنت كما تقول فقـد ضيعتَ هذا كله بفسقك ، حيث استـعملتَ قـوة شبـابك وجلَدك وذَرَب لسانك وشـجاعة وجـدانك فى الباطل وفى المعصية ، وفى الصدِّ عن سبيل الله .

وهكذا جمـعتْ الآية بين خصـوصية هـذا السبب فى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. (١٨)﴾ [السجدة] وبين عموم الموضوع فى ﴿لَّا

---

(١) « ذهب الجمهور إلى أن العبرة بعمـوم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالحكم الذى يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها ، كآيات اللعان التى نزلت فى قذف هلال بن أمـيـة زوجـتـه فـيـتناول الحكم الـمأخـوذ مـن هذا اللفظ العـام ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ..(٦)﴾ [النور] غيـر حادثة هلال دون احتـياج إلى دليل آخر » [مـباحث فى علوم القرآن ـ مناع القطان ـ ص ٨٠ ـ نشر مكتبة وهبة ١٩٨٨ م] .

(٢) الجلد : القوة والشدة والصبر . [لسان العرب ـ مادة : جلد] .

(٣) الذرب اللسـان هو الحـادُّ اللسان . والـذرب : الحـاد من كل شىء . [اللسـان ـ مـادة : ذرب] .

يستوون ﴿١٨﴾ [السجدة] ، فهذا الحكم ينسحب على الجمع أيضاً .

وجاء قوله تعالى : ﴿**لا يستوون** ﴿١٨﴾﴾ [السجدة] كأنه جواب للسؤال ﴿**أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا** .. ﴿١٨﴾﴾ [السجدة] لكن ، لماذا لم يأت الجواب مثلاً : لا يستوى المؤمن والفاسق ؟ قالوا : لأن هذا الأسلوب يسمى أسلوب الإقناع التأكيدى ، وهو أن تجعل الخصم هو الذى ينطق بالحكم .

كما لو قال لك صديق : لقد مررتُ بأزمة ولم تقف بجانبى . فتستطيع أنْ تقول له : وقفتُ بجانبك يوم كذا ويوم كذا ـ على سبيل الخبر منك ، لكن الإخبار منك يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، فتلجأ إلى أسلوب آخر لا يستطيع معه الإنكار ، ولا يملك إلا الاعتراف لك بالجميل فتقول بصيغة السؤال : ألم أقدم لك كذا وكذا يوم كذا وكذا ؟ وأنت لا تسأله إلا إذا وثقتَ بأن جوابه لا بُدَّ أنْ يأتى وَفْق مرادك وعندها يكون كلامه حجة عليه .

لذلك طرح الحق سبحانه هذه المسألة فى صورة سؤال : ﴿**أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا** .. ﴿١٨﴾﴾ [السجدة] ولابد أن نقول نحن فى جواب هذا السؤال : لا يستوى مؤمن وفاسق ، ومَنْ يقُلْ بهذا فقد وافق مراد ربه .

وما دام أن المؤمن لا يستوى والفاسق ، فلكل منهما جزاء يناسبه :

﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ
جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

وإنْ كانت لفظة (مؤمن) جاءت مفردة ، فقد أوضحتْ هذه الآية

أن المراد الجمع ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٩)﴾ [السجدة] أى : العموم ؛ لأنه أُخذ مما كان مفرداً جمعاً ، وهذا دليل على أن هذا المفرد فى جنسه جمع كثير ، كما فى قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾ [العصر] فالإنسان مفرد يُستثنى منه الجمع ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣)﴾ [العصر] لأن لفظة الإنسان هنا تدل على الجماعة ، و (ال) فيها ال الاستغراقية .

فالحق سبحانه ينقلنا من المؤمن إلى العموم ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٩)﴾ [السجدة] ومن الفاسق إلى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا .. (٢٠)﴾ [السجدة] فهما جماعتان متقابلتان لكل منهما جزاؤه الذى يناسبه :

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ .. (١٩)﴾ [السجدة] والمأوى هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ويلجأ إليه ليحفظه من كل مكروه ، كما قال تعالى فى شأن عيسى وأمه مريم عليهما السلام : ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾ [المؤمنون] يعنى : يمكنهما الاستقرار فيها ؛ لأن بها مُقومات الحياة (ومعين) يعنى : عيْن ماء .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة ابن نوح حين قال لأبيه : ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ .. (٤٣)﴾ [هود] فنبَّهه أبوه وحذره ، فقال : ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣)﴾ [هود]

ونلحظ فى هذه القصة حنان الأبوة من سيدنا نوح حين قال ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥)﴾ [هود] لكن ربه عز وجل لا يتركه على هذه القضية ، إنما يُصحِّحها له ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

إذن : فالبنوة هنا ليست بنوة نسب ، إنما بنوة إيمان وعمل ، ألاَ

ترى أن سيدنا رسـول الله قال لسلمان الفارسي وهو من غـير العرب بالمرة : « سلمان منا آل البيت »[١] .

وإنْ كـان النسب ينفع من الآباء إلى الأبناء ، فـهـذه ليـست خصوصـية للأنبياء ، إنمـا لكل الناس ، كما قال سـبحانه : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ** .. (٢١) ﴾ [الطور]

وإلحاق الأبناء بالآباء في الحقيـقة كرامة للآباء أنْ يجدوا أولادهم معهم في الجـنة جزاء إيمان الآباء وعملهم الصـالح ، فإنْ كان الأولاد دون سنِّ التكليف فطـبيـعي أنْ يلحـقـوا بالآباء ، بل وتكون منزلتـهم أعظم من منزلة آبائهم ؛ لأن الأطـفال الذين يمـوتون قبل الرُّشْـد ليس لهم أمـاكن محـددة ، إنمـا ينطلقـون في الجنة يمـرحون فـيهـا كما يشاؤون .

وقـد مـثَّلْنا لذلك بـالولد الصـغـيـر تأخـذه مـعك في زيارة أحـد الأصدقـاء ، فتـجلس أنت في حجـرة الجلوس ، بينمـا الولد الصغـير يجـري في أنحاء البـيت ، ويدخل أي مكان فيـه لا يمنعه أحـد ، لذلك يسمون الأطفال (دعاميص) الجنة[٢] .

---

(١) عن عمرو بن عوف المزني قال : خط رسـول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السَّمُر طرف بني حـارثة حـين بلغ المـداد ، ثم قطع أربعـين ذراعـاً بين كل عـشـرة ، فـاختلف المهـاجرون والأنصار فـي سلمان الفارسي ، وكـان رجلاً قوياً ، فـقالت الأنصـار : سلمان منا . وقالت المـهاجـرون : سلمان منا . فقـال رسول الله ﷺ : « سلمان مـنا أهل البيت » أخرجه البيـهقي في دلائل النبوة (٣/٤١٨) والحاكم في مسـتدركه (٣/٥٩٨) وضعَّف الذهبي إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

(٢) عن أبي حسان قال قلت لأبي هريرة : إنه قد مـات لي ابنان ، فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قـال : نعم « صغارهم دعامـيص الجنة يتلقى أحدهم أباه - أو قال أبويـه - فيأخذ بثوبه كـما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا فـلا يتناهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة » أخـرجه مـسلم في صحيـحه (٢٦٣٥) ، وكـذا أحمد فـي مسنده (٢/٤٧٧ ، ٥١٠) .

والبعض هنا يثير مسألة أن الإنسان مرتهن بعمله ، ولا ينتفع بعمل غيره ، فكلٌّ مُعلَّق من (عرقوبه) كما نقول ، فالبعض يسأل : لماذا إذاً نصلى على الميت ، والصلاة عليه ليست من عمله ؟ فإنْ كانت الصلاة عليه لها فائدة تعود عليه فقد انتفع بغير عمله ، وإن لم تكُنْ لها فائدة فهى عبث ، وحاشَ لله أنْ يضع تشريعاً عبثاً .

ونقول : هل صليت على كل ميت مؤمناً كان أو كافراً ؟ لا إنما نصلى على المؤمن ، إذن : صلاتك أنت عليه نتيجة إيمانه ، وجزء من عمله ، ولولا إيمانه ما صلَّينا عليه .

نعود إلى معنى كلمة (المأوى) ، فالجنة مأوى المؤمن ، تحفظه من النار وأهوالها ﴿ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) ﴾ [السجدة] أى : جزاء عملهم الصالح ، والنزُل هو المكان المعدّ لينزل فيه الضيف الطارىء عليك ؛ لذلك يسمون الفندق (نُزُل) ، فإذا كانت الفنادق الفاخرة التى نراها الآن ما أعدَّه البشر للبشر ، فما بالك بما أعدَّهُ ربُّ البشر لعباده الصالحين ؟

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾

﴿ فَسَقُوا .. (٢٠) ﴾ [السجدة] من الفسوق أى الخروج ، نقول : فسقتْ البلحة يعنى خرجت عن قشرتها ، والمراد هنا الذين خرجوا عن طاعة الله وعن مطلوبات الحق سبحانه ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. (٢٠) ﴾ [السجدة] قلنا : إن المأوى هو المكان الذى تأوى إليه ، فيحميك من كل مكروه ، فكيف تُوصف به النار هنا ؟

قالوا : المأوى المكان الذى ينزل فيه الإنسان على هواه وعلى (كيفه) ، أما هؤلاء فينزلون هنا رغماً عنهم ، أو أن الكلام هنا على سَبْق التهكم والسخرية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [آل عمران]

ومعلوم أن البشرى لا تكون إلا بالشىء السَّار ، ومثل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان] ، وهذا كثير فى أسلوب القرآن ؛ لأنه أسلوب يؤلم الكافرين ، ويحطّ من شأنهم .

ثم يُصوِّر لنا الحق سبحانه ما فيه أهل النار من اليأس : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة] وفى موضع آخر قال عنهم ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف] إذن : لا أمل لهم فى الخروج ، ولا حتى فى الموت الذى يريحهم مما هم فيه ، بل تردهم الملائكة فى العذاب ، ويقولون لهم : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة]

فالإذاقة تعدَّتْ اللسان واستولتْ على كل الأعضاء ، فكل ذرة فيه تذوق عذاب النار جزاء ما كانوا يكذبون بها فى الدنيا ، حيث كذَّبوا بالأصل ، وهو الرجوع إلى الله يوم القيامة .

ثم إن عذاب الفاسقين لا يقتصر على عذاب الآخرة ، إنما سيكون لهم عذاب آخر يذوقونه فى الدنيا :

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ (١) دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) قال ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى مثله عن كثير غيره . وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة يعنى به عذاب القبر . [تفسير ابن كثير ٣/٤٦٢] .

﴿الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ .. ﴿٢١﴾﴾ [السجدة] أى : القريب والمراد فى الدنيا ﴿دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ .. ﴿٢١﴾﴾ [السجدة] أى : عذاب الآخرة ، وهذا العذاب الذى سيصيبهم فى الدنيا مظهر من مظاهر رحمة الله حتى بالكافرين والفاسقين ؛ لأن الله تعالى علَّله بقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة]

إذن : المراد ما يلحقهم من عذاب فى دار التكليف كالأسْر والذلَّة والهوان من كثرة المؤمنين وقوتهم ، ألم يركب عبد الله بن مسعود[1] مع ما عُرِف عنه من ضآلة الجسم[2] على أبى جهل فى إحدى الغزوات ، وقد طرحه فى الأرض وداسه بقدمه ، ويُرْوى أن أبا جهل نظر إليه وهو على هذه الحال وقال : لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صعباً يا رُويعى الغنم[3] .

ووصف العذاب فى الآخرة بأنه العذاب الأكبر ؛ لأنه العذاب المحيط الذى لا مهربَ منه ولا ملجأ .

---

(١) هو : عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلى ، من أكابر صحابة رسول الله ﷺ فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة ، كان قصيراً جداً يكاد الجلوس يوارونه ، ولى بيت مال الكوفة بعد وفاة النبى ﷺ ، ثم قدم المدينة فى خلافة عثمان فتوفى فيها عن نحو ستين عاماً .

(٢) قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : كان ابن مسعود رجلاً نحيفاً قصيراً . وقال إبراهيم التيمى : أن ابن مسعود صعد شجرة فجعلوا يضحكون من دقة ساقيه فقال رسول الله ﷺ : أتضحكون منهما ؟ لهما أثقل فى الميزان من جبل أحد . [ابن سعد فى الطبقات الكبرى ٣/١٤٣] .

(٣) كان هذا فى غزوة بدر ، حيث أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتماس أبى جهل فى القتلى ، فمر عبد الله بن مسعود بأبى جهل ، فوجده بآخر رمق ، فوضع رِجْله على عنقه ، وقال له : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ فقال له أبو جهل : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعى الغنم . ثم احتز ابن مسعود رأسه . [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٧٦ ، ٢٧٧] .

وقوله سبحانه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) ﴾ [السجدة] أى : رجاء أنْ يعودوا إلى ساحة الإيمان . وقلنا : إن لعلَّ تفيد الرجاء المحقق إنْ كان الفعل من الله عز وجل ، أما الرجاء هنا فرجاء فى العبد الذى يملك الاختيار ؛ لذلك رجع منهم البعض ، ولم يرجع الآخرون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) ﴾

هنا أيضاً يعرض علينا ربنا - تبارك وتعالى - هذه القضية فى صورة هذا السؤال التقريرى ، كأنه سبحانه يقول لنا : أنا رضيت ذمتكم يا عبادى ، فقولوا لى : هل يوجد أحد أظلم ممَّنْ ذُكِّر بآيات ربه ، ثم أعرض عنها . والمنطق الطبيعى أن نقول : لا أحدَ أظلم من هذا . وهذا إقرار منَّا بهذه الحقيقة ؛ لذلك عرضها الحق سبحانه فى صورة سؤال بدل الإخبار بها .

ومعنى ﴿ ذُكِّرَ .. (٢٠) ﴾ [السجدة] أى : أن رسالات الله إلى خَلْقه ما هى إلا تذكير بعهد الإيمان القديم الذى أخذه الله على عباده حين قال سبحانه : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] وسبق أنْ قُلْنا : إن فى كل منَّا ذرةً شهدتْ هذا العهد ، وعلى كل منا أنْ يحفظ إشراقات هذه الذرة فى نفسه بأنْ يُغذِّيها بالحلال ، ويُعوِّدها الطاعة لتبقى فيه إشراقات الإيمان .

كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ [الشمس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) ﴾

والإيتاء يختلف ، فهناك مَنْ يُؤْتَى بمنهج أو بمعجزة أو بهما معاً ، وهناك إيتاء لكتاب موقوت ، لزمن موقوت ، لقوم موقوتين ، وإيتاء آخر لكل الأزمان ولكل الأمكنة .

و ﴿ الْكِتَابَ .. (٢٣) ﴾ [السجدة] أى : التوراة ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ .. (٢٣) ﴾ [السجدة] أى : فى شك ﴿ مِّن لِّقَائِهِ .. (٢٣) ﴾ [السجدة] لقاء موسى عليه السلام أم لقاء الكتاب ؟ إنْ كان لقاء موسى فهو تبشير بأن الله سيجمع بين سيدنا رسول الله وهو حَىٌّ بقانون الأحياء وموسى عليه السلام الميت بقانون الأموات ، وهذا لا يتأتَّى إلا إذا كان حديث الإسراء والمعراج فى أنهما التقيا فيه صادقاً[1] .

لذلك فى القرآن آية ينبغى أن نقف عندها ، وأن نتأملها بيقظة ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) ﴾ [الزخرف]

هذا تكليف من الله تعالى لمحمد ﷺ أنْ يسأل الرسل ، فمتى يسألهم ؟ فهذه الآية تنبىء بأنهم لا بُدَّ أنْ يلتقوا . فهذه الآية فى لقاء موسى والأخرى فى لقاء كل الرسل[2] . إذن : علينا أن نصدق بحديث

---

(١) عن ابن عباس قال . قال رسول الله ﷺ : « أريت ليلة أُسْرى بى موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس » رواه قتادة عن أبى العالية الرياحى . وقال : يعنى به ليلة الإسراء . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٦٣) .

(٢) هو قول لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير الآية (الزخرف : ٤٥) أى : واسألهم ليلة الإسراء ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمعوا له . [تفسير ابن كثير ٤/١٢٩] .

الإسراء والمعراج ، وأن رسول الله ﷺ اجتمع بإخوانه من الأنبياء وصلى بهم ودار بينهم حوار .

أما إذا كان المعنى ﴿فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ..(٢٣)﴾ [السجدة] أى : لقاء الكتاب ، فالتوراة كما قلنا أصابها التحريف والتبديل ، وزيدَ عليها وكُذب فيها ، لكن سيأتيك يا محمد من أهل التوراة أمثال عبد الله بن سلام مَنْ يعرفون التوراة بلا تحريف ويُسرُّون إليك بها ، هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾ [آل عمران]

ألم يواجه عبد الله بن سلام[1] قومه من اليهود ، فيقول لهم : كيف تُكذِّبون بمحمد ، وقد كنتم تستفتحون به على الذين كفروا ، فتقولون لهم : لقد أظلَّ زمان نبى يأتى فنتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[2] ، لقد تجمعتم من شتى البلاد التى اضطهدتكم ، وجئتم إلى يثرب تنتظرون مَقْدم هذا النبى ، فما بالكم تكذِّبونه ؟

وقال القرآن عنهم : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة]

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه « الحصين » شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية ، ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ . [الأعلام للزركلى ٤/ ٩٠] .

(٢) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

ومن لقاء الكتاب الذى وعد به النبى ﷺ ما رُوى عن عبد الله بن سلام أنه لما أراد أنْ يؤمن أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهْتٌ - يعنى : يتبجحون بالكذب - فإذا أسلمتُ قالوا فىَّ ما ليس فىَّ . فاسألهم عنى يا رسول الله قبل أنْ أعلن إسلامى ، فلما اجتمع اليهود سألهم رسول الله : ما تقولون فى ابن سلام ؟ فقالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وابن حبرنا ... فقال عبد الله : أما وقد قالوا ما قالوا يا رسول الله فأشهد أنْ لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فقالوا : شرُّنا وابن شرِّنا .

فقال عبد الله : ألم أقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت(1) ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) ﴾ [السجدة] أى : جعلنا الكتاب هدى ، وهذا دليل على أن منهم مهتدين بدليل شهادة القرآن لهم : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾

أئمة : ليس المقصود بالإمامة هنا السلطة الزمنية من باطنهم، إنما إمامة القدوة بأمر الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

(1) بعدما أسلم عبد الله بن سلام قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عنى قبل أن يعلموا بإسلامى ، فجاءت اليهود ، فقال النبى ﷺ : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبى ﷺ : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فأعاد عليهم ، فقالوا مثل ذلك فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . قالوا : شرنا وابن شرنا ، وتنقصوه . قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٣/١٠٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

.. ﴿٢٤﴾ [السجدة] ، فهم لا يصدرون في شيء إلا على هدى من الله .

وفي سورة الأنبياء قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء]

الإيقان : هو الإيمان الذي لا يتزعزع ، ولا يطفو إلى العقل ليبحث من جديد ، يعني : أصبحت مسألة مُسلَّماً بها ، مستقرة في النفس .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

تلحظ على أسلوب الآية أنها لم تقل مثلاً : إن ربك يفصل بينهم ، إنما استخدمت الضمير المنفصل (هو) ليفيد التأكيد والاختصاص ، فالمعنى لا أحدَ يفصل بينهم في القيامة إلا الله ، كما قال سبحانه : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

إذن : جاءت (هو) لتقطع الشك في وجود الغير .

ولك أنْ تتأمل هذا الضمير في هذه الآيات ، ومتى استعمله الأسلوب ، يقول تعالى في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء] أي : الأصنام ﴿ إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء]

فاستخدم الضمير الدالّ على الاختصاص في الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء ، وهذه الأفعال مظنة أنْ يدعيها أحد لنفسه ، أما الإحياء والإماتة فهي لله وحده لا يمكن أنْ يدَّعيها أحد ؛ لذلك جاءت بدون هذا التوكيد ، فهي مسألة مُسلَّم بها لله تعالى .

والشك يأتى فى مسألة الفصل يوم القيامة ؛ لأن الله تعالى جعل من الملائكة المدبرات أمراً لتدبر أمر الخلق ، وقال سبحانه ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ(١) مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد] أى : تبعاً لأمر الله فيه ، فقد يفهم البعض أن للملائكة دوراً فى الفصل بين الناس يوم القيامة ، كما أن لهم مهمة فى الدنيا .

وتأمل هنا أن الله تعالى ذكر لفظ الربوبية فقال ﴿ إِنَّ رَبَّكَ .. (٢٥) ﴾ [السجدة] ولم يقُلْ : إن الله ، والربوبية كما قُلْنا عطاء وتربية ، وكأنه سبحانه يقول : اطمئنوا فالذى سيتولّى مسألة الفصل هو ربكم .

وقوله سبحانه : ﴿ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) ﴾ [السجدة] لأن الفصل لا يكون إلا عن نزاع ، والنزاع لا بُدَّ أن يكون عن قضية تريد مراجعةً من حكم حاكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - تكلم عن الرسالة التى أرسل بها رسوله ﷺ ليؤكد فى الناس عقيدة أعلى ، وهى عقيدة الوجود للإله الواحد الذى لا شريك له ، ثم بيَّن أن لنا مع الله لقاء آخر حين تنتهى هذه

(١) له معقبات : أى ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/ ٢٩] .

الدنيا الفانية ، ثم نستقبل حياة خالدة ، إما إلى جنة إنْ شاء الله ، وإما إلى نار ونعوذ بالله .

والحق سبحانه حين يعرض آياته فى الكون يعرضها لتثبت أنه هو الذى خلق هذه الآيات العجيبة ، فلم يتركنا سبحانه ننظر وننصرف ، إنما لفتنا ونبَّهنا إلى وجوب النظر إلى آياته فى الكون ، وحين يأتى مَنْ يريد أنْ يُنبه عقلك فاعلم أنه لا يريد أنْ يخدعك ، أو أن يأخذك على غرَّة ، فربك يقول لك : استقبل كلامى هذا بمنتهى التدبُّر والتذكُّر والتعقُّل .

ولو لم يكُنْ واثقاً من أنه سيصل بالتدبُّر والتعقُّل والتذكر إلى الغاية التى يريدها لما نبَّه عقلك لآياته ، كما ترى عارض السلعة الجيدة الواثق من جودتها يعرضها عليك ، ويكشفها لك ، ويدعوك إلى فحصها وتأمُّل ما فيها ، فهو لا يفعل ذلك إلا لثقته فى بضاعته وأنها ستنال رضاك .

أما صاحب السلعة المغشوشة فيخدعك ويسلك معك أساليب اللفِّ والدوران والتغرير ، فحين تذهب مثلاً لشراء حذاء وجاء ضيقاً يقول لك : سيتسع بعدما تمشى فيه ، فإنْ جاء واسعاً يقول لك : أحضر لك واحداً أوسع ؟ ليوهمك أنه ضيِّق ، وأساليب هؤلاء مكشوفة لا تخفى على أحد . فالذى يريد أنْ يغشَّ أو يخدع يلف القضايا ليسترها عن عقلك المتدبر المتذكر المتمعن .

أما الحق سبحانه ، فكثيراً ما قال فى قرآنه : أفلا يسمعون ، أفلا يعقلون ، أفلا يتدبرون القرآن ؛ لذلك من مصلحة الدعوة أنْ يتعقلها الناس ، وأن يتدبروها ، فى حين أن بعض أصحاب الديانات الأخرى يقول لك حين تناقشه : أبعدْ العقل عن هذه المسألة ، لماذا ؟ لأنه

واثق أنها لو بُحِثَتْ بالعقل لردها العقل ولم يقبلها - والحق سبحانه يريد ألاَّ يترك عذراً لأحد في البلاغ ، فالدعوة قد بلغتْ الجميع بلاغاً سليماً واضحاً ، تلك آيات الله فى الكون .

ثم يأتى الحق سبحانه بآيات معجزة ليثبت صدْق الرسول ، فيجعلها تخالف نواميس الكون فيما نبغ فيه القومَ ليقطع عليهم الحجة ، ثم يأتى بآيات الأحكام التى تحمل المنهج بافعل ولا تفعل ، ويُبيِّن أنَّ صلاح حركة الحياة فى تطبيق هذا المنهج ويترك للمخالفات أنْ تُظهر بعض العيوب ، فإذا ما نظرتَ إلى عيب أو عورة فى المجتمع عرفتَ أنها نتيجة طبيعية لمخالفة منهج الله ، فكأن المخالفة ذاتها من مُؤكِّدات الحكم .

ثم يُبيِّن سبحانه أنه أرسل رسلاً كثيرين من لَدُنْ آدم عليه السلام ؛ لأن الإنسان الذى هو خليفته فى الكون تصيبه غفلة حين ينخرط فى أسباب الدنيا ، وتأخذ عليه كل فكره وكل همه ، فينسى ما طلب الله منه ، فمن عادة الإنسان ألاَّ يتذكر إلاَّ ما ينفعه النفع العاجل .

لذلك نجد كثيراً من الناس ينسى ما للناس عنده ، ويتذكر ما له عندهم .

فالحق سبحانه يقول : أنا لم يَعُدْ لخَلْقى عندى حجة ، فقد نثرتُ لهم آيات الكون المُلْفتة ، وهى آيات واضحات لم يدَّعها أحد لنفسه ، ومع كثرة الملحدين والكافرين لم نَرَ أبداً مَن ادَّعى خَلْق الشمس أو القمر ، ولم يقُلْ أحد : إننى أُسيِّر الريح ، أو أُنبت الزرع ، أو أُنزل الماء من السحاب .

والحق سبحانه يُنبهنا أيضاً : لا تنْسَ أيها الإنسان أنك خليفة لله فى الأرض ، وإياك أنْ تظن أنك أصيل فيها ، فساعةَ تظن أنك أصيل

فى الدنيا يتخلى الله عنك ، ويتركك لنفسك فتهلك ، كما حدث لقارون حين وسَّع الله عليه فى الدنيا ، فاغترَّ بما فى يده ، وظن أنه من سعيه وعلمه وجهده .

فكانت النتيجة ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص] لينبه الناس جميعاً أن المال ليس مال صاحبه ، إنما هو مُسْتخلف فيه ، ولو كان ماله لحافظ عليه ، فالحق يردُّ الناس بالأحداث إلى طبيعة الفطرة الخلافية ، لأن فساد الكون يأتى من اعتبار الإنسان نفسه أصيلاً فى الكون .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الإنسان إذا نظر فى الكون نظرة فاحصة عادلة لَعلم ما يأتى : أن كل شىء لم تتدخل فيه يَدُ الإنسان سليم ، ويؤدى مهمته على أكمل وجه ، وأن كل فساد فى الكون إنما هو من تدخُّل الإنسان فيه بغير قانون ربه ، ولو تدخَّل فيه بقانون ربه لَصلُحت له الأشياء التى تدخَّل فيها ، كما صلُحَتْ له الأشياء التى لم يتدخل فيها .

وقلنا : إنك إذا رأيتَ عواراً فى الكون فاعلم أنه نتيجة حقٍّ مُضيَّع من حقوق الله ، فحين ترى فقيراً يتضوَّر جوعاً أو عرياناً لا يملك ما يستر عورته ، فاعلم أن الأغنياء قصَّروا فى أداء حق الله فى الزكاة ؛ لأن الله تعالى شرعها بحساب ، فلو أن القادر أخرج الزكاة المفروضة فى ماله لما بقى فى المجتمع المحيط به محتاج .

ثم يريد منا الحق سبحانه أن نحافظ فى نفوسنا على إيمان الفطرة ، وعلى الذرة الإيمانية الأولى التى لم تدخلها الشهوة ، ولم يخالطها النسيان ، هذه الذرة التى شهدت العهد الأول الذى قال الله فيه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

أى : قبل أنْ تأخذكم شهوات الدنيا ونسيانها فتُنكروا هذه الشهادة ، وتقولون : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

فالذى يحافظ على هذه الذرة ، وعلى هذه اللمسة الربانية التى وضعها الله فيه بيده ، وعلى العهد الذى أخذه الله عليه يبقى له نور هذه الفطرة ، وتظل هذه النورانية متأججة فى نفسه ، فإن أهملها طمستْها الذنوب والغفلة .

لذلك فالنبى ﷺ يضرب لنا المثل فيقول : « تُعْرض الأمانة ـ أى : التكاليف الاختيارية من الله ـ على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيُّما قلب أُشْرِبها نُكتَتْ فيه نكتة بيضاء ، وأيُّما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة سوداء حتى تكون على قلبين : أبيض مثل الصَّفا ، لا تضره فتنة ما دامتْ السموات والأرض ، والآخر أسود مُرْبَاداً كالكوز مُجَخِّياً[1] ممقوتاً ، لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[2] .

فالطاعات أو الذنوب تتراكم على القلب كما تُصَفُّ عيدان الحصير عوداً بجوار عود ، فيبيضّ القلب بالطاعات ، أو يسودّ بالمعاصى .

---

(١) مربادا : أسود عليه غبرة . والتربد : التلوّن [اللسان ـ مادة : ربد] والكوز المجخىّ أى : المائل الذى يصب ما فيه . وهو هنا المائل عن الاستقامة ، فشبه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء ، لأن الكوز إذا مال انصبَّ ما فيه . [لسان العرب ـ مادة : ج خ ى] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٨٦ ، ٤٠٥) ومسلم فى صحيحه (١٤٤) كتاب الإيمان من حديث حذيفة بن اليمان . ولفظه : « تُعرض الأمانة » .

والإنسان منه مادة ومنه روح ، الروح فى المادة تعطيها الحياة والحركة والفهم والفكر والتصرف ، وهما قبل أن يلتقيا كانا مُسبِّحَيْن لله تعالى ، فكل شىء فى الوجود مُسبِّح ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ.. (٤١) ﴾ [النور]

وعلى الإنسان أنْ يفهم هذه الحقيقة ، وأن يحافظ على الطبيعة الإيمانية فى ذراته ومكوناته لتظل مشرقة نيِّرة بنور الإيمان ، فإنْ غفل عن هذه الطبيعة حدثتْ الأغيار ، وحدث عدم الانسجام بين ذراته فى الذات البشرية ، فحين تحمل إرادتُك الجسمَ والروحَ على المعصية يكرهك جسمك ، وتكرهك روحك ؛ لأنك خالفتَ منهج خالقها - عز وجل - فهى مُسبِّحة عابدة وأنت لاهٍ غافل عاصٍ ؛ لذلك تلعنك روحك وتلعنك أبعاضك .

ومن رحمة الله بالعاصى أن ينام فترتاح أبعاضه ، وترتاح روحه من معاصيه ، وتأخذ راحتها فى عبادة ربها ، حيث لا منازع لها ، ولا معاند من إرادة صاحبها ، لذلك يشعر الإنسان بالراحة عند النوم ، ويقوم منه نشيطاً لما حدث من انسجام وتعادل بين ذرات ذاته أثناء النوم .

لذلك ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ كانت تنام عينه ولا ينام قلبه[1] ؛ لأن أبعاضه منسجمة دائماً فى نومه وفى يقظته ، فإذا رأيتَ

---

(١) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة : كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ فى رمضان ؟ قالت : ما كان يزيد فى رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة : يصلى أربع ركعات فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثاً ، فقلت : يا رسول الله ، تنام قبل أن توتر ؟ قال : « تنام عينى ولا ينام قلبى » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٦٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين .

إنساناً يغلب عليه أنه مُنْهك القوى فاعرف أنه قد أتعب ذراته ، وأنها تودُّ الخلاص منه بالنوم ، وكأنها تقول له نَمْ فلم تَعُدْ صالحاً للتعايش معى .

إذن : الحق سبحانه يُنبِّهنا دائماً من هذه الغفلة بواسطة الرسل ، ثم يترك سبحانه للرسالات التى سبقتْ أدلة تؤيد الرسل الموجودين ، وتعينهم على أداء مهمتهم ؛ لذلك يقول لنا : انظروا إلى الرسل الذين سبقوا ، وكيف كانت عاقبة المكذِّبين بهم .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ .. (٢٦) ﴾ [السجدة]

كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[1] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ[2] (١٠) ﴾ [الفجر]

فهذه الأهرامات التى يَفِد إليها الناس ، والتى تُعَدُّ مزاراً سياحياً هى آية من آيات الله تقوم دليلاً على هلاك أصحابها من المكذِّبين للرسل ، فالحق سبحانه لم يترك لأحد من خَلْقه عذراً بعد أنْ كشف له الآيات الكونية تشهد بوحدانيته تعالى وألوهيته ، والمعجزات التى

---

(١) جابوا الصخر : أى قطعوه ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١/١٣٥] .

(٢) نقل ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٠٨) أقوال السلف فى تأويل الأوتاد :

« – الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . قاله ابن عباس .

– كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم فى أوتاد من حديد يعلقهم بها . قاله مجاهد وسعيد ابن جبير .

– كان له ملاعب يُلعب له تحتها من أوتاد وحبال . قاله قتادة » .

وقال الأستاذ إبراهيم عبد الفتاح فى كتابه « القاموس القويم ٢/٢١٨ » : « لعل المراد بها الأهرام التى بناها فرعون تشبه الجبال » .

تثبت صدق الرسول فى البلاغ عن ربه ، ثم آيات الأحكام التى تحمل أقضية الحياة ، والتى لا يمكن لبشر أنْ يستدرك عليها ، والتى تحمل الحلَّ الشافى والدواء الناجع لكل داءات المجتمع .

وبعد ذلك تركت لهم تكذيب المكذِّبين أمام أعينهم ، كما قال سبحانه : ﴿ **وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ** (١٣٧) **وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** (١٣٨) ﴾ [الصافات]

فها هى آثار عاد وثمود وغيرهم ما تزال شاهدةً عليهم ، بعضها فوق الأرض ، ومعظمها مطمور تحت طبقات الثَّرى ؛ لذلك نجد أن كل الآثار القديمة يجدونها فى الحفريات تحت الأرض ، ولم لا وقد كانت العاصفة تهبُّ الهبَّة الواحدة ، فتبتلع القافلة بأكملها ، فما بالك بهبَّات الرياح من أيام عاد حتى الآن . إذن : خذوا عبرة من مصير هؤلاء .

ومعنى ﴿ **أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ** .. (٢٦) ﴾ [السجدة] يهدى : أى : يدلُّ ويرشد ويُبيِّن ويُوضِّح ، والهداية لها عناصر ثلاثة : هادٍ ومهدىٌّ والشىء المهْدَى إليه ، ومادة : (هدى) تُستعمل فى كتابِ الله ثلاثة استعمالات :

الأول : أنْ يُذكر الهادى ، وهو الله عز وجل ، **والثانى** : أن يُذكر المهدىّ وهم الخَلْق ، **والثالث** : وهو أن يُذكر المهدى إليه ، وهى الغاية التى يريدها الله .

وهذا الفعل يأتى مرة متعدِّياً بنفسه ، كما فى سورة الفاتحة : ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** (٦) ﴾ [الفاتحة] أى : يا الله ، فالله هو الهادى ، ونحن المهديون ، والغاية هى الصراط المستقيم .

ومرة يُعدَّى الفعل باللام ، كما فى : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَـٰذَا**

.. (٤٣) ﴾ [الأعراف] فلم يَقُلْ : هدانا هذا ، ومرة يتعدى بإلى كما في :
﴿ .. وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾ [البقرة]

فتلحظ أن الهادى واحد وهو الله تعالى ، والمهدىّ هو الخَلْق ، لكن المهْدَى إليه هو المختلف ، أما فى هذه الآية فالأمر مختلف ، حيث يقول سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (٢٦) ﴾ [السجدة] فلم تدخل اللام على المهْدى إليه ، إنما دخلتْ على المهدى ، فلم يقُلْ الحق سبحانه : أولم يَهْدِ الله هؤلاء القوم لكذا .

فلماذا ؟

قالوا : لأن بعض الناس يظنون أن الله حين يهدى إلى الطريق يُحمِّلك مشقات التكاليف ؛ لذلك نرى بعض الناس ينفرون من التكاليف ويروْنَ فيها عبئاً عليهم ، ومن هنا عبد بعضهم الأصنام ، وعبد بعضهم الشمس أو القمر .. الخ ؛ لأنها آلهة بدون منهج وبدون تكاليف ، ليس لها أوامر ، وليس عندها نَواهٍ ، وما أيسر أنْ يعبد الإنسان مثل هذه الآلهة التى لا مطلوبات لها .

والذى يرى فى التكاليف مشقة ، ويراها عبئاً عليه يراها كذلك ؛ لأنها تصادم مراد نفسه فى الشهوات وتحدُّ من رغباته ، ومرادات النفس ربما أعطتْك لذة عاجلة ، لكن يعقبها حسرة وشر آجل .

ومثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذى يتحمل مشقة المذاكرة والدرس طمعاً فى التفوق الذى ينتظر حلاوته ، وآخر يفضل اللذة السريعة العاجلة فيلعب ولا يهتم ، فيلاقى مذلَّة الفشل والاحتقار آخر العام .

إذن : عليك أنْ تقرن بين مشقة العمل والنتيجة والثمرة التى تنالها من ورائه ، وعندها تهون عليك مشقة التكاليف ؛ لأن ما ينتظرك من

الأجر عليها أعظم مما قدَّمتَ وأبقى .

فالحق سبحانه يريد منا أنْ نُقبل على التكاليف ، ونعرف أنها لمصلحتنا نحن ، وأنها فى الحقيقة تشريف لنا لا تكليف ؛ لأن الذى كلفنى لا يحتاج منى إلى هذا ، ولا ينتفع من عبادتى بشىء ، بل هو سبحانه يتحنن إلىَّ ؛ لأكون أهلاً لإنعامه وجديراً بفضله وكرمه .

ألم يقُلْ سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ⑦ ﴾ [إبراهيم] فالمسألة إذن منك وإليك ، فالله سبحانه له صفات الكمال قبل أنْ يخلق عباده .

فاللام فى ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. ㉖ ﴾ [السجدة] أى : لصالحهم ومن أجلهم ، وليس عليهم ، فالهدى لصالح المهدى لا الهادى ، ولو فهم الإنسان هذه الحقيقة وعرف أن الهداية راجعة إليه لَقبَّل يد مَنْ بلّغه عن الله هذا الفضل .

ويؤكد هذا المعنى - لمن فطن - قوله تعالى عن المؤمنين : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ⑤ ﴾ [لقمان] فالهدى ليس حملاً يحملونه ، إنما مطية يركبونها إلى الغاية النبيلة التى أرادها الله لهم .

فما الذى بيَّنه الله للمؤمنين ودلَّهم عليه ؟

يقول سبحانه : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. ㉖ ﴾ [السجدة] أى : انظروا إلى المخالفين للرسل من قبلكم ، وكيف أخذهم الله فلم يُمكِّنهم من رسله ، بل انتصر الرسل عليهم .

وكم هنا تفيد الاستفهام عن العدد ، وهى بمعنى كثير ، كما تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك أى : مرات كثيرة لا تُعَدُّ ،

والمراد أننا بيَّنا لكم كثيراً من الأمم التى عادتْ رسلها ، وكيف كانت عاقبتهم وغايتهم التى انتهوا إليها :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم(1) مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

ومن مصلحتنا أن يُبيِّن الله لنا عاقبة المكذبين ؛ لأنه ينبهنا إلى الخطر قبل أنْ نقع فيه . وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا عن قوله تعالى - من سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فاعتبر الشواظ والنار من النِّعم التى ينبغى ألاَّ نُكذِّب بها ، لماذا ؟ لأنه نبَّهنا إليها حتى لا نقع فيها .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ الْقُرُونِ .. (٢٦) ﴾ [السجدة] القرن حدده العلماء بمائة عام ، لكن هذه المائة تتداخل ، ويقترن فيها عدة أجيال يجتمعون على مذهب أو مبدأ واحد ، فالقرن يقرن بين الجد والابن والحفيد ، هذا إنْ أردتَ الزمن وحده ، فإنْ قُرِن الزمن بعصر دين من الأديان أو نبى أو ملك ، فقد يطول القرن إلى الألف عام ، كما فى قرن نوح عليه السلام .

فالقرن مرتبط بما قُرِن به ؛ لذلك نقول : العصر الجاهلى ، عصر صدر الإسلام ، عصر بنى أمية ، العصر العباسى ، عصر المماليك ،

---

(1) قال قتادة : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هم قوم لوط . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ قال : قوم صالح وقوم شعيب . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ﴾ قال : قارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قال : قوم نوح وفرعون وقومه . [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/٤٦٣] .

وما نزال حتى الآن نقول عن عصرنا : العصر الحديث .

والحق سبحانه يبين لنا فى الحياة التى نعيشها أن الزمن متغير ، إلى أعلى فى الماديات ، وإلى أدنى فى المعنويات ، فكلما تقدَّم الزمن انحلَّ الناس من رِبْقة الدين وتفلَّتوا منه ؛ ذلك لأن الارتقاءات المادية ينتج عنها حضارات تستهوى النفوس وتغريها ، والنتيجة انحدار فى القيم وفى الدين ، ولو أن الارتقاء كان متساوياً لسار الأمران فى خطين متوازيين .

لذلك يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا .. (٢٤)﴾ [يونس]

ثم إنك لو نظرتَ إلى جزئيات الحضارة فى الكون تجد أن الأمم صاحبة الحضارات لم تستطع أنْ تجعل لنفسها وقاية من اندحار حضارتهم ، ولم يستطيعوا صيانتها . حتى العصور التقدمية : كنا فى العصر الحجرى ، ثم عصر البخار ، ونحن الآن فى عصر الفضاء .

إذن : نحن مرتقون فقط فى الماديات ، لكن منحدرون فى المعنويات ، لكن هل هذا الارتقاء المادى جاء عن امتلاك لمعالم هدى الله فى الأرض ؟ لا ، لأن الله تعالى بيَّن لنا : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

فأنا الذى أنزلتُ ، وأنا الذى ضمنتُ حفظه ، فلم أتركه لكم تحفظوه ، إذن : المسألة عن عجز منا ، وإلا فكتاب البداية موجود حجة علينا .

وقوله تعالى : ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. (٢٦)﴾ [السجدة] أى : أننى لا ألقى القضايا بدون حجة أو دليل ، بل هى شاخصة أمامكم تمرون

بها ، وترونها ليل نهار ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] فالله يحضُّهم على أنْ يستمعوا إلى سيَر المكذِّبين المعاندين ، وما حاق بهم من انتقام الله منهم .

وبالله : الإنسان مهما قَصُر عمره ، ألم يَرَ ظالماً ، وألم يَرَ مصرع هذا الظالم وعاقبة ظلمه ، فإنْ لم يَرَ ظالماً ألم يُحدَّث عنه ؟ إذن : مما يصلح حال الناس أنْ يستمعوا إلى حكايات عن الظالمين وعن نهايتهم ، وما ينزل بهم من الانتقام الذى لا ينتظر الآخرة ، بل يُعجل لهم فى الدنيا .

وفى ذلك حكمة لله بالغة ؛ لأن الظالم ربما لا يرعوى ولا يرجع فى الدنيا عن ظلمه ، فيظل يُعربد فى الخَلْق ما أحياه الله ، لكن إنْ مسَّه شيء من العذاب ، فلربما عاد إلى رُشْده ، وإن لم يَعُدْ كان عبرة لغيره .

لذلك قال أهل المعرفة : لن يموت ظلوم حتى ينتقم الله منه . وربما مَنْ رآه ظالماً يراه مظلوماً ، ومَنْ أراد أن يرى نهاية ظالم فلينظر إلى مصارع الظالمين قبله .

وتأمل قول ربك : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا .. (١٢٩) ﴾ [الأنعام] فكأن الظالم له رسالة ، هى أن ينتقم من ظالم مثله ، وهكذا يُهلك الله هؤلاء بعضهم ببعض ؛ لأن الخيِّر طيِّب القلب لا يؤدب ظالماً ، فإن اعتديتَ عليه غلب عليه طابع التسامح والعفو .

ألم يَقُلْ سيدنا رسول الله ﷺ لكفار مكة : « اذهبوا فأنتم

الطلقاء »[1] فكأن الله عز وجل يقول للخيِّر : اجلس أنت واسترح ، واترك الأشرار لى ، فسوف أرسل عليهم من هو أشرّ منهم ليؤدبهم .

واختار الحق هنا حاسة السمع ﴿ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] لأنها وسيلة الإدراك المناسبة للموقف ، فبها نسمع ما يُحكَى عن الظالمين وبها نعتبر ، وفى موضع آخر سيقول ﴿ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾ [السجدة] ويقول : ﴿ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨) ﴾ [يس] فيُنوِّع لنا ، ويُقلِّب كل وسائل الإدراك لينبهنا من خلالها .

والمعنى ﴿ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] ما يُرْوَى لهم عن مصارع الظالمين ، لقد نبهناهم وذكَّرناهم ، ومع ذلك أشركوا وجعلوا سمعهم (ودن من طين ، وودن من عجين) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ[2] فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾

أولاً لك أن تلحظ هنا توافق النسق القرآنى بين صدر الآيات وعَجُزها ، ففى الآية السابقة قال سبحانه ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (٢٦) ﴾ [السجدة] أى : يدلُّ ويرشد ، والكلام فيها عن قصص تاريخى ، فناسبها ﴿ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] أما هنا فالكلام عن مشاهد

---

(١) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » [راجع السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

(٢) أرض جُرز : لا نبات بها كأنه انقطع عنها ، أو انقطع عنها المطر . [لسان العرب - مادة : جرز] فهى الأرض الجدباء التى لا نبات فيها أو التى أُكل نباتها أو هلك لأى سبب . [القاموس القويم ١/١٢٠] .